الطرق الميسرة في تدريس اللغة العربية في الكتاتيب القرآنية في توات

Facilitating the teaching of Arabic in the Koranic schools in Tawat

دليلة شاري[1*](طالبة الدكتوراه) ، **د: بغداد بلية[2]**
[2.1] المركز الجامعي صالحي أحمد . النعامة (الجزائر)

تاريخ الاستلام : 2019/09/15 ؛ تاريخ المراجعة : 01/ 12 /2019 ؛ تاريخ القبول : 2019/12/31

ملخص:

إن تعليم القرآن الكريم وتدريس تفاسيره المتعددة والمتنوعة يخضع لمناهج غير التي تخضع لها العلوم الأخرى، وتحكمه طرق تتمايز إلى حد كبير عن الطرق والأساليب التي تحكم بقية العلوم، ومرد ذلك إلى القيمة المعرفية والعلمية التي يحظى بها القرآن الكريم والسنة النبوية والأساليب الفصيحة؛ وبما أن اللغة العربية لغة القرآن فإن اكتسابها وإتقانها ضرورة ملحة لدى المتعلمين.

والهدف من هذا البحث عقد مقاربة علمية تتأسس عبرها قواعد تعليم اللغة العربية في الكتاتيب والمدارس القرآنية، مع الإشارة إلى المناهج المتبعة فيها، وانعكاساتها ونتائجها على اكتساب المهارات والعلوم الأخرى؛ ومن بين النتائج التي نرمي إليها: تعزيز اهتمام المتعلمين باللغة أولا والمعارف المتعلقة بها والمتلازمة في آن واحد، مع التدرج في عمليات التلقين والاكتساب.

الكلمات المفتاح: تيسير؛ قواعد؛ منهج؛ كُتّاب؛ تلقين.

Abstract :

The teaching of the Holy Quran and the teaching of its varied and varied interpretations are subject to curricula that are not subject to other sciences, and are governed by methods that differ greatly from the methods and methods that govern the rest of science, due to the cognitive and scientific value enjoyed by the Holy Quran and the Sunna and clear methods; Arabic Language of the Koran, acquisition and mastery is an urgent need for learners.

The aim of this research is to establish a scientific approach based on the rules of teaching Arabic language in the Koranic schools and schools, with reference to the methods used, and their implications for the acquisition of skills and other sciences. Among the results we aim at: One by one, with incremental memorization and acquisition.

Keywords: facilitation; rules; curriculum; book; indoctrination.

I- تمهيد :

إن المتنقلَ بين أقاليم ولاية أدرار الثلاثة الكبرى (قورارة، توات، تيديكلت)، إذا اختلط بساكنتها سيلاحظ مقدارًا من التميّز في المنطوق اللغوي والتمايز في الأداء وتعدد اللهجات العربية وازدواجيتها أحيانا مع الزناتية والتارقية وإذا تتبع الأسماء وطبيعة المسميات، سيكتشف خاصيةً مفادها: أن الأسماء على تعددها وكثرتها في الأقاليم فهي لا تتعدى القاموس اللغوي الواحد؛ وهذا القاموس ينتشر عبر الأقاليم من الحدود إلى الحدود، وأما الأسماء لا تتعارض مع المسميات في كل الأقاليم التي تضمّها، وقد تتعدد المعاني لكلمة واحدة مثلما يحصل مع المصطلح اللغوي الدقيق (فقد تتعد المفاهيم والمصطلح واحد)؛ لذلك لا يجد الساكنة صعوبة في التفاهم والتآلف، فالمعتقدات واحدة والأعراف مثلها ومستويات الحضارة ذاتها، مع أن الناس في البلاد يتكلمون لغات ولهجات متفاوتة ومتباينة، لكن دوما يتفقون في كل شيء ويعقدون معاملاتهم التجارية بصورة متناهية الانسجام ويتبادلون العلوم والدروس والفقه والأحكام، ويجتمعون في مواسم سنوية محدد الزمان والمكان؛ وليس هذا فحسب فالعربية هي الأخرى متلونة عندهم، وطبيعة الأصوات تتغير في نطق اللفظ الواحد من أولف إلى رقان ومرورا بأدرار وصولا إلى تيميمون

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد عُرف عن توات في كتب التاريخ بأنها أرض العبادة، لمواتاتها كلَّ من قدم إليها، فإقليم توات كان مفتوحا على مصراعيه لمختلف الهجرات التي عرفتها القبائل والطوائف، من الشمال أو الجنوب، عبر أزمنة التاريخ المتعاقبة، منذ الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب الإسلامي، بل هناك من يشير إلى فترات زمنية أبعد من ذلك، ولكونها همزة وصل بين الشمال والجنوب، باعتبارها مركزا حيويا استراتيجيا، سياسيا، اجتماعيا، ثقافيا، واقتصاديا، ومعبراً غاية في الأهمية للقوافل التجارية، ومواكب الحجاج القاصدين لبيت الله الحرام المارين بها، ولا غرابة إذا قلنا أن تلك القوافل، قد أثّرت، وتأثّرت بإقليم توات على مختلف الأصعدة. ولم يلبث الحال هكذا حتى استقرّت قبائل عدّة بالإقليم التواتي، مشكِّلة بذلك قصورها وواحاتها وقصباتها.

فلقد شهد التاريخ الثقافي للمنطقة حركة نشطة ووتيرة متسارعة، وبخاصة مع دخول العرب والمسلمين الفاتحين للمنطقة، وانتشار الإسلام في مختلف ربوعها وأصقاعها، هذا الأخير الذي جاء محمَّلا بحراك ثقافي واسع، فمعه توافدت جموع العلماء و المشايخ من شتى أقطاب المعمورة، وشُيِّدت المدارس القرآنية وفُتِّحت أبواب الزوايا، فأقبل الناس ينهلون ويغترفون من مناهل علومها وفي شتى فنونها المعرفية، ويتزوَّدون لأنفسهم فيها من أفواه العلماء في مختلف العلوم اللُّغوية والشرعية والعقلية.

وسنحاول في هذا المقال إضاءة بعض الأنوار عليها، من الخلال الإجابة على إشكالية البحث: ما هي الطرق التي كان يسلكها العلماء في تعليمهم اللغة العربية - إذا علمنا أنّ أغلب أهل المنطقة من أصول زناتية- وكذا تلقينهم مختلف علومها؟، وهذا يقودنا للتحدث عن المدرسة القرآنية (الكتّاب) والزاوية باعتبارهما المكان الذي كانت تؤدَّى فيه العملية التعليمية، متّكئين على المنهج التاريخي في تتبع الزوايا والمدارس القرآنية، كذا المنهج الوصفي في وصفهما شكلياً، ووصف الآليات المتّبعة فيهما.

I.1- . المدرسة القرآنية:

1.2 لقد أولى الرسول صلى الله عليه وسلم عناية كبيرة لتعليم القرآن الكريم منذ بداية الوحي، لكون القرآن الكريم أوسع وأشمل المعارف البشرية على الإطلاق، وخصّ بتعليمه الصبيان والصغار؛ وذلك حرصًا منه على أن يتلقى هؤلاء الفتية عقائده منذ الصغر، فتنشأ فيهم محبته وتعلُّمه وتعليمه. ولتعليم كتاب الله للناشئة وتلقينهم إياه ،كان لابد من تخصيص أماكن للقيام بهذا الدور، فكانت الكتاتيب في المغرب الأوسط بشكل عام ، بمثابة المدارس الابتدائية التي يتلقى فيها المتعلم العلوم الأولى والتي غالبا ما تكون حفظ الكتاب[1] .

وقد ذكرها ابن خلدون (ت 808ه) في كتابه المقدّمة حيث قال: «... فأما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط...لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من الحديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعه عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن يتبعهم من قرى البربر...»[2]؛ وذكر أنهم أقوم الناس على رسم القرآن وحفظه من سواهم وهذا كان ينطبق على أهل توات، أما تعليم القراءة والكتابة، والإملاء فكان مسايراً لتعليم القرآن، كما سنوضّح لاحقاً.

I.2- تعريف المدرسة القرآنية أو الكتاتيب القرآنية: للمدرسة القرآنية تعريفات عدّة، لكنها لا تخرج عن هدف واحد، ومن ذلك أنها: «ذلك المكان الذي يتلقى فيه التلميذ دروسه الأولى وتربيته الأساسية على يد الشيخ »[3]. والكُتَّاب بضم الكاف وتشديد التاء: موضع تعليم الكتاب (أي الكتابة) والجمع الكتاتيب أو المكاتب،[4](الطالب عبد الرحمن بن أحمد التجاني، 1983م) ونرى أنه موضع تعليم الكتاب؛ أي كتاب القرآن الكريم، وكان يقوم ببنائها الخواص في غالب الأحيان نظرًا لبساطتها، أو يقوم بعض المعلمين باستئجار بيوت تُتخذُ مكانا للتعليم، أو تقوم جماعة من الناس ببناء منازل أو غرف قرب المسجد احتساباً لله و طلبا لأجر الآخرة [5]، لممارسة العملية التعليمية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويمتاز الكُتَّاب ببساطة أثاثه، كأن يُفرش بالحصير المصنوع من الحلفاء، يجتمع هناك التلاميذ حول المعلم في شكل حلقة دائرة أو نصف دائرة أو في شكل مربع ناقص ضلع مثل ما هو مبين في الشكل (1):

هذا في أحسن الأحوال أما في الغالب فكان فراشه التراب، هذا بالإضافة لأدوات أخرى تستعمل في تعليم الصبيان، كالألواح الخشبية، و أقلام القصب وقطع الصلصال، والدواة المصنوعة من الصمغ والصوف فضلاً عن المصاحف وبعض المتون، وأحياناً كثيرة تكون تلك الأدوات خاصة بكل قندوز (تلميذ) يحملها معه.

ويُدعى الكُتَّاب بلغة التواتيين بأقربيش، ويطلق عليه في بعض المناطق بالمحضرة، وفي أماكن أخرى بالجامع، و لا تكاد تخلو منه قرية أو قصر.

II - تعريف الزوايا:

الزوايا مفردها زاوية، وهي مشتقّة من الفعل "انزوى، ينزوي" بمعنى اتخذ ركنا، كما أنها مأخوذة من فعل "زوى" و "أزوى" بمعنى ابتعد وانعزل، كما في كتب اللغة سميت كذلك؛ لأن الذين فكّروا في بنائها أول مرة هم من المتصوفة والمرابطين، اختاروا الانزواء بمكانها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه طلبا للهدوء والسكون اللذان يساعدان على التأمل والرياضة الروحية، ويناسبان جو الذكر والعبادة، وهي من الوظائف الروحية التي من أجلها وُجدت.[6]

وفِعْل زَوَا الشَّيءَ يَزْوِيهِ زَيَاً؛ أي جَمَعَهُ وقَبَضَهُ وفي الحديث "زَوَيْتُ في الأرض فأُرِيتُ مَشَارِقَهَا ومَغَارِبَهَا" (صحيح البخاري في الروض النظير، رقم 1170/61)، وزَوَى ما بين عَيْنَهُ أي جَمَعَهُ.

وقال الأعشى:

يزِيدُ بَعْضُ لطَرَف عَيْني كَأَنَّمَا زَوَى عِيْناهُ عَلَى المَعاجِمِ.

والزاوية من البيت ركنه؛ لأنها جمعت قطرا منه، أي جمع زاوية،[7] والزاوية في الأصل ركن البناء، كان3ت تطلق في بادئ الأمر على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى، ولا يزال للكلمة هذا المعنى عند المسلمين في المشرق، واكتسب مصطلح الزاوية تغييرا في المفهوم منذ العصور الوسطى في العالم الإسلاميِّ وتطورت من الدير إلى الخانقات، التي أصبحت تطلق بصفة خاصة من طرف الفرس على المنشآت الصوفية عند المسلمين. والزاوية في شمال إفريقيا أكثر شمولا، إذ تطلق على البناء، أو طائفة من الأبنية ذات الطابع الديني، وهي تشبه الدير أو المدرسة، وحسب محمد نسيب يقول دوماس: « إن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ومجانية للضيافة، وهي بهذين الوصفين تشبه كثيرا في العصور الوسطى الدير».[8]

والزاوية عند الشيخ محمد باي بلعالم: من فعل زَوَى أي جَمَعَ، لأنَّ فيها تتجمع الصفوف، والفقراء، وطلبة العلم، ويجمع فيها المال، بطرق مشروعة، قصد تمويلها، وتسيير نظامها.[9]

وهي مؤسسة دينية إسلامية، ذات طبيعة اجتماعية روحية، وهي تختلف حسب وظائفها ونشاطها [10] ، كما عرّفت الزوايا على أنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية، يجتمع فيها المريدون لتلقي الأوراد والذكر، وتتخذ فيها مأوى لطلبة القرآن، والعلم والزوار، الذين يقصدونها للاستفتاء، والصلح بين المتخاصمين، وكثر هذا النوع من الزوايا ابتداءً من القرن العاشر الهجري، كما كان لها حضوراً اجتماعياً بارزاً. كما خلّفت الزاوية نظام الرباط، وأصبحت هي المجال الحيوي لتكوين المتصوفة، تربية النفس بمنهج فكري وعقائدي خاص بكل طائفة أو طريقة دينية، وهي تعد مكاناً للعبادة والزهد وتلقي الأوراد وللضيافة. أمّا عن أهل توات، فتعرف الزاوية عندهم على أنها مسجد خاص بطائفة دينية من الصوفية، أو ضريح لأحد الأولياء الصالحين، تتصل به غالبا مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة، أو أقارب الولي الصالح.[11] ، وفي تعريف آخر للتواتيين: يقصد بها تلك الأوقاف الجارية التي يسبّلها شخص ما في حياته، وتبقى قائمة بعد وفاته من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خلال نص موثَّق تحدد فيه طبيعتها، وقيمتها لينتفع بها عامة الناس، ويشرف عليها صاحبها خلال حياته وبعد موته، يتعاقب عليها ورثته أو المقدمين للطريقة أو للزاوية.

وما يميّز الزاوية أنها أهم ركيزة للتصوف وانتشاره، ولصياغة منهجية حركية تهتم بعدة أمور تعجز عنها الدولة أحيانا، فهي خليّة اجتماعية يرتادها الأهلون لقضاء حوائجهم، كما أنها مكتفية بذاتها من جميع النواحي الاقتصادية، ويأمّ الشباب للزاوية باعتبارها جامعة عليا، يتلقى فيها الدروس الشرعية على أيدي كبار العلماء والمشايخ للزاوية، وإلى جانب ذلك كانت الزاوية تغرس في نفوس الشباب روح الجهاد، لذلك كانت تهتم بعنصر التدريب العسكري.[12]، هذا عن دور الزوايا آنذاك، وقد نظم الشيخ باي بلعالم هذا في أبيات يقول فيها [13]:

أَمَّا الزَّوَايَا فَهِيَّ رُكْنٌ يُبْنَى ... كَدِيرٍ أَوْ صُمْعَةٍ فِي المَبْنَى
وَفِي شَمَالِ القَارَّةِ السَّمْرَاءِ ... يَنْمَى لِمَا خُصَّ بِالأَوْلِيَاءِ
وَقِيلَ اسْمٌ لِبِنَاءٍ قَدْ جَمَعَ ... مَدْرَسَةً وَ غُرَف لَهَا تَبَعْ
فَيَجِدُ الطَّالِبُ فِيهَا مَثْوَى ... وَهِيَّ لِلضُّيُوفِ أَيْضًا مَأْوَى
فَهِيَّ عَلَى الجُمْلَةِ دَارُ الدِّينِ ... وَمَنْزِلٌ لِلضَّيفِ دُونَ مِينِ
وَهِيَّ فِي الشَّرقِ تُسَمَّى بِالرِّبَاطِ ... وَكُلُّ مَنْشَا يُعَدُّ لِلنَّشَاطِ
وَعُرِفَتْ فِي صَدْرِ ثَامِنِ القُرُون ... بِأَنَّهَا المَسْجِدُ وَالحِرْزُ المصُونِ
فِيهَا المَرَافِقُ لِكُلِّ طَالِب ... وَهِيَّ الحِمَايَةُ لِكُلِّ هَارِب
فَهِيَّ دَارُ الصُّلحِ والمُلاَئَمَة ... وَهِيَّ دَارُ الخَيْرِ وَالمُسَالَمَة

ومن خلال التعاريف السابقة الذكر، نلاحظ أن هناك تقارب واضح في تعريف كل واحد منها، وهذه التعاريف بدورها منبثقة من أصل واحد، ألا وهو الأسس العربية الإسلامية إن لم نقل عن اعتبارها مسيحية المنشأ، لكن الزاوية عند التواتيين كانت أكثر تجليا، وذلك من خلال عدّة تعاريف سموها بأنفسهم، واتّخذوا من مبادئ الإسلام والعقيدة الصحيحة منهجا لهم في وضعها.

وكانت الزاوية في توات عبارة عن أبنية صغيرة منفصلة، موزعة في جهات مختلفة عن المدن والقرى والقصور التواتية في شكل (مسجد صغير)، يقيم فيه المصلون الصلوات الخمس، ويتعبدون فيه، ويعقدون به حلقات تدريسية في علوم الدين، وما يتعلق بها من علوم عقلية ومنطقية ولغوية. والمتتبّع لتاريخ توات الثقافي والعلمي والفكري يلحظ، وعن كثب أنّه كان غنيًّا بمراكز إشعاعية ثقافية، وكان لاستثمارها دور هام في نشر الحركة العلمية.

1.II - نشأتها وانتشارها بإقليم توات: لقد نشأت الزوايا على يد رجال عرفوا بالعلم والتقوى والصلاح، والدارس لتاريخها في المنطقة ونشاطها بالإقليم يجده عريق عراقة الإقليم نفسه.

فتاريخ الزوايا يرجع إلى تاريخ نشأة المنطقة التواتية بمناطقها الثلاث (تيدكلت-توات- قورارة)، والباحث عن تاريخ نشأة الزوايا سيجد أول نشأتها في تاريخ نشأة توات فتوات هي الزاوية والزاوية هي توات، والأدلة على ذلك كثيرة وتتجلى في أن اسم الزاوية قد أطلق على الكثير من قرى البلديات، وهذا أكبر دليل على العناية التي كان يوليها سلفنا الصالح لهذه المؤسسة، ومثال ذلك:

1-زاوية حينون ببلدية أولف التي يرجع تاريخ تأسيسها إلى دخول الإسلام للمنطقة وقد أسس مسجدها في القرن الثاني للهجرة سنة 164هجرية.

2-زاوية الشيخ أبي الأنوار المعروفة بزاوية مولاي هيبة ببلدية تمقطن.

3-زاوية سيدي سليمان بن علي التي ظهرت في بداية القرن السابع الهجري.

4-زاوية الشيخ مولاي عبد الله الرقاني ببلدية رقان.

5-زاوية كنتة التي أسسها السيد محمد الكنتي في بلدية زاوية كنتة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

6- زاوية الشيخ المجاهد الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي بزاوية كنتة.
7- زاوية سيدي بلقاسم بمنطقة قورارة بتيميمون.
8- زاوية الدباغ بدائرة تيميمون.
وغيرها من الزوايا مع أن الزوايا في غير هذه القرى موجودة منها زاويا العلم والقرآن، وزوايا الإطعام والإصلاح.[14]

إذ لم يخلُ قصر أو مدينة تواتية من مدرسة قرآنية أو زاوية، وقد تكون أكثر من مدرسة، منها ما هو رئيسي ومنها ما هو فرعي. فعددها أصبح يقارب عدد المساجد، وأحيانا يفوق ذلك، وهذا دليل على الأهمية التي تكتسبها الزاوية كوحدة أساسية ضمن البنية الاجتماعية للإقليم.

ومن ابرز المدارس المنتشرة كذلك في اللاإقليم ما ياتي بيانه في الجدول:

الرقم	البلدية	المدارس
.1	رقان	ثلاثة مدارس15: رقان المركز، باحو، سالي
.2	زاوية كنته	ثلاثة مدارس: مدرسة أنزجمير، مدرسة سيداحمد الرقادي، مدرسة سيد علي بن حنيني زاجلوا.
.3	بلدية فنوغيل	مدرسة تاسفاوت
.4	بلدية تمنطيط	مدرسة الشيخ احمد بن ديدي، مدرسة الشيخ عبد القادر نومناس.
.5	بلدية تيمي	مدرسة مهدية
.6	بلدية أدرار	مدرسة الشيخ بلكبير الكبرى، مدرسة الشيخ سالم، مدرسة أوقديم الإمام مالك، مدرسة أدغاغ
.7	بلدية بودة	مدرسة الشيخ الحاج الكبير لغمارة
.8	بلدية تسابيت	مدرسة الأعياد
.9	بلدية أوكروت	مدرسة أوكروت
.10	بلدية تيميمون	مدرسة بني مهلال، مدرسة سيدي بوغرارة
.11	بلدية تينركوك	مدرسة السيد الدباغ

ياتي على ذكر القصبات في خلال ذلك، وهي كما يقول محمد باي بلعالم تعدّ الحصون التي يسكنها الأهالي في الماضي، وما من قصبة هناك إلا محاطة بخندق وقنطرة عند مدخلها[16]، إلا أن الخراب اكتسح أغلب هذه القلاع وبقي اسمها وتاريخا المقيد في المخطوطات والوثائق.

وأشهر هذه القصبات[17]: قصبة بلال وقصبة ميخاف في أولف الوسط، وقصبة السيد وقصبة الجنات في تيمقطن، وقصبة سيد العابد في أقبلي، والقصيبة في تيط، والقصبة في إنغر، وقصبة الشيخ مولاي عبد المالك في تيمادنين، وقصبة الشيخ سيدي محمد في انتهنت برقان.

2.II- مراحل التعليم في إقليم توات: مما هو جدير بالذكر في هذا المقام هو أن التعليم كان منتشرا في توات خلال القرن 10ه/16م، حيث يرجع الفضل كله في هذا النشاط العلمي المنقطع النظير، والحركة العلمية المزدهرة إلى المدارس القرآنية والزوايا؛ إذ كان لهما دور كبير في تخريج الطلبة والمدرسين، وقد مرّ هذا التعليم بمراحل معلومة كما بينها ابن خلدون في مقدمته قائلا:"...اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا، معناه يلقي الأستاذ عليه أي؛ الطالب أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب إليه في شرحها على سبيل الإجمال... ثم يرجع إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين... ثم يرجع إلى الفن ثالثا وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مبهما... هذا هو وجه التعليم المفيد، وكما يحصل في ثلاث تكرارات..."[18] وهي الطريقة المتّبعة في الإقليم، حيث يرتكز الدرس التعليمي على ثلاث أسس هي:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

II.2.3- السماع: وهو أن يقرأ الشيخ للتلميذ المتن، أو الشرح، والتلميذ ينصت، ويتتبع قراءة الشيخ، وذلك قصد ضبط المقروء، كما يكون كذلك أثناء قراءة الحزب الذي يطلق عليه في المنطقة (التكرار)، والذي غالبا ما كان يقرأ بعد صلاة المغرب، حيث كان يحفظ المتعلم أحيانا بعض السور قبل أن يصل إليها.

II 2.3 التكرار: وهو معاودة ما قرأه من متن، أو شرح، على مسامع الشيخ، وفي حضرته، حتى يتيقن الشيخ من حفظ التلميذ، وضبطه للمدروس، والمقروء.

II 3.3.الحفظ: وهو عملية أساسية في تحصيل مادة الدرس اللغوي، وتعتمد عليه المدارس التقليدية، هذا فضلا على أن المناطق الصحراوية، والبدوية تساعد على الحفظ بسبب الهدوء وعدم وجود المشتتات والملهيات.

وعلى هذا الأساس تقسم الدراسة في توات إلى مراحل متدرجة أما المرحلة الأولى من التعليم فتبدأ عند إمام القصر، الذي كان إلى جانب الصلاة يقوم بالتدريس في الكتاتيب والمدارس القرآنية التي كانت تنتشر في كامل الإقليم، وهي كما ذكرنا آنفا المرحلة التي يتلقى فيها الصبيان حروف الهجاء أ.ب.ت.ث...)[19] (والفي عبد الرحمن، 2010م)، حيث تُلقّن للصبي فيحفظها بأسمائها: (أليف، الباء، التاء، الثاء، الجيم، الحاء،...، لام أليف، الهمزة)، وبعد حفظها عن ظهر قلب " ينتقل إلى معرفة الحرف المعجم منها والمهمل، وينطق به هكذا باللغة العامية بالدارجة: ألف ما ينقطشي، الباء وحدة من تحت، التاء زوج من فوق..."[20]

وهذا معناه أن الألف غير منقوط (مهملة)، والباء معجمة بنقطة واحدة من أسفل، للتمييز بينها وبين مثيلاتها، وهكذا مع باقي الحروف، ثم عليه أن يعرف بعد ذلك كيفية النطق بالحروف وهي مشكولة [21] بالتّدرج من أسهلها (الفتحة، تليها الضمة، ثم الكسرة فالسكون) وينطق بها : با نصب؛ أي يذكر الحرف والحركة، مع كل الحروف، ثم ينتقل للرفع (بو رفع)، والكسر (بي خفض)، والسكون (بلزم)، وعندما يتمكن من الحروف ويتقنها، ينتقل إلى التهجية ثم القراءة المسترسلة. وفي ذات الوقت يتمرّن على الكتابة، ففي" البداية يكتب المعلم للتلميذ لوحه بخلف القلم دونما حبر فيترك أثر الآيات ليأتي التلميذ فيكتب على أثرها بالحبر أو الصمغ."[22]

وتسمى هذه العملية بالتَّرْشَام، ثم ينتقل بعدها إلى كتابة نصّ السورة على الرمل فينقل الصبي ما كتب على الرمل إلى اللوح بالحبر والقلم، فإذا تحكّم في الخط والكتابة، انتقل إلى الإملاء[23]؛ حيث يملي عليه الشيخ الآيات ويكتبها في لوحته، مع تنبيهه على الأخطاء وتذكيره بقاعدة الرسم والضبط القرآني[24]، وفي المرحلة الثانية ينتقل الطلبة إلى الزوايا لمتابعة دراستهم – لمن أراد ذلك أو بالأحرى لمن كانت له نية تولي مهنة الإمامة وتدريس القرآن في المستقبل- وهي بمثابة الطور الثانوي، حيث يكون التعليم في هذه المرحلة أكثر تخصصا وانضباطا، ويستفيد خلاله الطلبة القادمين من مسافات بعيدة من الإطعام والمبيت وفق نظام داخلي، تكون الدراسة فيه من الفجر إلى صلاة العشاء[25]، وإلى جانب الألواح، يبدأ الطلبة في هذه المرحلة بمطالعة الكتب خاصة كانت أو تلك التي يحصلون عليها سواء من مكتبة الزاوية أو من بعض المشايخ، وأهم العلوم التي يدرسها الطلبة خلال هذه الفترة: التفسير، الحديث، الفقه والسيرة والمعاني، النحو واللغة...، وتكون الدراسة على شكل حلقات علمية متصلة ومتسلسلة أو ما يعرف بالوقفات[26]، حيث يقوم الشيخ بإلقاء الدرس ليفتح بعده باب النقاش مع الطلبة وتخصص كل حلقة لمادة معينة ويستمر ذلك طيلة أيام الأسبوع[27]، أو حسب ما يخصصه شيخ الزاوية، وهي تشبه إلى حدّ بعيد المحاضرات أو البحوث التي تلقى في الجامعة.

أما أهم الكتب اللغوية التي كان يتدارسها الطلبة في هذه المرحلة: متن منثور الأجرومية، ونظمها، ملحة الإعراب للحريري[28] ، ألفية ابن مالك، لامية الأفعال في التصريف لابن مالك، مغني اللبيب، قطر الندى... إلخ.[29] وفي نهاية هذه المرحلة يكون الطلبة قد بلغوا تحصيلا علميا، وحصلوا على إجازات تؤهلهم للقيام بمهام التدريس والإمامة في القصور والزوايا. وهناك مرحلة ثالثة وهي أكثر تخصصا كان لا يحصل عليها إلا القليل من الطلبة والمشايخ الميسوري الحال، وهي مرحلة التنقل، وشدّ الرحال لطلب العلم، داخل الوطن وخارجه؛ فكان التوجه نحو الحواضر العلمية مثل تلمسان، فاس، القاهرة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتمبكتو ...الخ والتضلع في مختلف العلوم ومعرفة الغريب والنادر منها كعلم القراءات، وعلم الكلام ومعرفة المذاهب الأخرى من غير المذهب المالكي،[30] المنتشر أو المعتمد في الإقليم.

II.3- العلوم اللغوية المشكلة للدرس اللغوي في المدرسة القرآنية: حظي النحو بعناية بالغة من لدن التواتيين، مقارنة بغيره من العلوم اللغوية الأخرى، فأولوه صدرا صالحا من عنايتهم وتثقيفهم، لما لهذا العلم، من أهمية في تقويم اللسان، وكذا فهم كتاب الله الذي من أجله أقيمت هذه المدارس، ولمسنا هذا من خلال فهرستنا لخزانة البلباليين بكوسام التي كانت الصدارة للكتب اللغوية فيها لألفية ابن مالك وشروحها.

أما بالنسبة للصرف، فإن التأليف فيه كان شحيحا، إذا ما استثني تأليف روضة النسرين في مسائل التمرين لمحمد بن أبّ المزمري، بالإضافة إلى بعض المؤلفات الصرفية الأخرى. وأما بالنسبة للبلاغة، فهي الأخرى لم تحظ بعناية من طرف التواتيين، فقد كان التأليف فيها نادرا، اللّهم إلا ما ألّفه الإمام المغيلي، وبعض المنظومات القليلة. وأما بالنسبة للمعجم والدلالة، فقد عرف هذا النوع قدرا لا بأس به من العناية، ويتمثل ذلك في شرح ألفاظ الفاتحة للإمام المغيلي، ينضاف إليها محاولات الشيخ عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد التمنطيطي (عالم توات)، والمتمثلة في اعتماده نظام وترتيب المعجم في رحلته.

يضاف إلى ذلك اعتماد مقصورة ابن دريد في اللغة بتوات، وقد ذكر ذلك صاحب الفهرسة، عندما تحدّث عن شيخه، الرقادي الكنتي، حيث قال: فجالسته وكنت مشتاقاً لعلم اللغة، وقد كنت نَسَخْتُ نسخةً من مقصورة ابن دريد وطرّتها من شرح ابن هشام اللخمي[31] عليها، وكنت أكرّرها، فدخل عليّ المدرسة، وهي في يدي، فأخذها وجعل يقرأها، وكان فصيحًا ذا رنة حسنة، فازدهاني بفصاحته واستفزني بحسن صوته، وفي أثناء ذلك يستشهد على لغتها بكلام الحريري في مقاماته، لأنه كان يحفظ أكثرها فزادني تعجبًا[32] .

II .3.1- أشكال المؤلفات المكونة للدرس اللغوي في المدرسة القرآنية[33] : سعياً من علمائنا رضوان الله عليهم لتيسير اكتساب علوم اللغة العربية وسهولة حفظ المؤلفات في شتى علومها؛ تنوعت أنماط وأشكال مؤلفاتهم بين مختصرات لمطولات، ونظم لمنثور والعكس، وشروح، وتعاليق، وأحياناً شرح المنظوم ثم نظم الشرح ليسهل حفظه على الطلبة، وأحيانا أخرى شرح الشرح، وفيما يلي تفصيل في ذلك:

II .2.3-.أ. المختصرات: ويكون للمؤلفات الطويلة، التي قد يعزف عنها الطالب لكبر حجمها، أو لثقلها فلا يتمكن من حملها في ترحاله، فتختصر ب**عرض الفكرة بعبارات موجزة، دون إخلال بالمضمون**، "ويقصد به إيجاز المطولات من الكتب اللغوية؛ وقد تتخذ المختصرات في عمومها شكلين أحدهما نثري، والآخر شعري (نظم)، وقد جعلت النظم نمطا وشكلا من أشكال التصنيف، أما النثري فقد كان لعلماء توات نصيب منه إلا انه بشكل قليل فلم أعثر(على حدّ قول الباحث بقادر عبد القادر) في الخزائن التواتية إلا على عمل واحد مختصر وهو "مختصر السمين في إعراب القرآن" لعبد الرحمن بن عمر التينيلاني، سماه "الدر المصون في إعراب القرآن".[34]، والمخطوط موجود في خزانة سيدي عبد الله البلبالي بكوسام، بالإضافة إلى مخطوط يمكن إضافته في هذا الباب للقزويني عنوانه: تلخيص المفتاح، لخص فيه القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي، وأضاف فيه بعض الأمثلة والشواهد، وفوائدعثر عليها في بعض كتب القدماء، كما رتّبه ترتيباً أقرب للتناول.

II .2.3-.ب. الشروح: وهو أن يتناول المؤلف كتاب من أمهات الكتب أو غيرها بالدراسة، فيفسره، ويكشف خباياه، ويوضح ما هو غامض فيه، وذلك لتبسيط مادته وتقريبه من الدارس، وهو أكثر الأنماط انتشاراً وتوفراً في خزائن المخطوط بالمنطقة، "وهذا الأسلوب ليس بدعا على توات وعلمائها، إنما هو طريقة قديمة عند علماء العرب والمسلمين قديما، واتخذ علماء توات هذا الأسلوب من أجل تعليم الناسِ دينهم ولغتهم، ومن المتون التي شرحها علماء توات بكثرة في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جانب اللغة العربية من نحو، وبلاغة، وصرف؛ فدرسوا مقدمة ابن آجروم في النحو وشرحها الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي (1400هـ) في كتاب سماه "الدر المنظوم شرح على مقدمة ابن آجروم"[35] ، كما نجد شروح ألفية ابن مالك التي حازت حصة الأسد في هذا المجال في رفوف خزانتي ملوكة وكوسام، منها: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، والنهجة المرضية في شرح الألفية، وهناك أيضاً نيل المراد من لامية ابن المجراد للمزمري، والعيون الغامزة على خبايا الرامزة للدماميني في علم العروض وغيرها كثير.

والشّرح كان وسيلة تعليمية سادت في تلك العصور على شكل وقفات يخصص لكل منها كتاب أو مادة فقهية أو لغوية، وكان هذا هو الدافع الذي دفع علماء توات إلى هذا النمط من التأليف، بل و إلى شرح الشرح كالتصريح بمضمون التوضيح للأزهري الذي كان عبارة عن شرح لشرح ألفية ابن مالك.

II .2.3- ج. التعليقات: إن التعليق على النص هو أن يضع القارئ (العالم) رأيه وملاحظاته في آخر الكتاب، أو الورقة التي قرأها، أو على حاشيتها، وربما يرجع ذلك إلى قلة وجود مادة الورق نظرا لوضع الإقليم الجغرافي والطبيعي، فكان علماء توات يكتبون ويسجلون ملاحظاتهم في أي مكان فارغ من الورقة أمام المعلومة التي يريدون التعليق عليها، وحتى ما بين سطور الورقة،[36]، وقد يكون ذلك أو لكتابة المعلومة في آنها حتى لا ينسى الفكرة، أو يتشتت انتباهه بين كتاب يقرأه وكتاب يكتب فيه.

II .2.3- د. الحواشي: وهو أن يضع العالم أو القارئ شرح بعض العبارات التي يراها غامضة أو في حاجة إلى شرح وتوضيح من النص، وقد لجأ علماء توات إلى هذا النوع من التصنيف نظرا لحاجتهم إلى ذلك؛ فهم يعمدون إلى النص اللغوي فيكتبون على حواشيه ولذلك سمي حاشية، وكذلك وضع سيدي محمد بن عبد الكريم صاحب درة الأقلام حاشية على شرح السيوطي لألفية ابن مالك في النحو والصرف ، وفي آخر المنظومة كتبت قصيدة للشيخ عبد الرحمن بن عمر يمدح فيها المنظومة وصاحبها، وهذا الشكل من التصنيف كثير جدا ومنتشر بين علماء توات في القرون السابقة

II .2.3- ه. النظم: ويكون أحيانا بنظم قواعد علم من العلوم ليسهل على المتعلم حفظها كنظم معاني حروف الجر لابن أبّ المزمري، وقصيدة في قواعد الإعراب لأبي عبد الله البروني قال في مطلعها:

هذا بحمد الله نظم سهل — مورده للطالبين نهل
ضممته قواعد الإعراب — وملح النحاة والأعراب
معتمداً على كتاب المغني — لابن هشام شيخ هذا الفن[37]

وأحياناً أخرى "إعادة تأليف كتب أو اختصارها في شكل منظومات شعرية تعليمية، حتى يسهل حفظها على طلبة العلم خاصة في الفقه واللغة، كما فعل ابن أب مع مقدمة ابن آجروم حينما نظمها في منظومة سماها "نزهة الحلوم" قال في مطلعها[38]:

نحمدك اللهم يا من أنعما — وعلم الإنسان ما لم يعلما
وبك أسألك أن تصليا — على الذي بالبهاء حليا
سيدِنا محمد خير البشر — وآله ما لاح فجر وانتشر
وبعد أيها الحبيب الصافي — المتلقي الحقّ بالإنصاف
فذا كتاب نزهة الحلوم — في نظم منثور ابن آجروم
وربنا المسؤول في نيل الأمل — وفي قبول القول منا والعمل

ومن بين الذين كان لهم إسهام في كتابة المنظومات اللغوية أذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ الشيخ محمد الزجلوي (ابن العالم)، محمد بن بادي، عبد الكريم بن بابا حيدا..."[39] وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، وقد أولوا لهذا النمط عناية كبيرة، كما أنّه لاقى إقبالا واهتماماً من المعلمين والمتعلمين لما له من فائدة في تسريع الحفظ، وتيسير في التلقين.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

IV- الخلاصة : إنّ مناهج التدريس في توات رغم المآخذ والعيوب المسجلة عليها، لا يمكن إنكار الآليات والمناهج المتبعة في سبيل تيسير اكتساب اللغة العربية وعلومها وذلك من خلال:

- اعتمادهم على مبدأ التدرج في التلقين، وذلك من السهل إلى الصعب، ويتمثل ذلك في طريقة تعليم الحروف الهجائية.
- التدرج في تنمية المهارات اللغوية لدى الطفل، بدءا بتعليم النطق ثم الكتابة فالقراءة.
- التدرج في تلقين علوم اللغة فالأجرومية أولاً، ثم ملحة الإعراب ثانيا، ثم ألفية ابن مالك ثالثا، ثم لامية الأفعال رابعا...
- اعتماد طريقة (القراءة ثم الشرح ثم المذاكرة ثم التحصيل) وهي على حسب البعض منقولة عن المغاربة(المغرب الأقصى) لأنهم يعملون بها في كل العلوم.

وقد نجد في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كانت تحيط بالمنطقة بعض العزاء في اختيارهم الوسائل والمناهج الملائمة لطلب العلم، ولا ينكر أحد انها كانت من أنجع الطرق وأنجحها، بالنظر إلى الأعداد الهائلة من الطلبة والمشائخ، وحتى نسبة المية تكاد تكون منعدمة بالنظر إلى أكثر المناطق تحضرا. على الرغم من وفرة التقنيات الحديثة والوسائل عالية الدقة والتطور.

وختاماً قمين بنا تطوير هذه الطرق بإدخال الوسائل التقنية الحديثة، وتكوين المشايخ أو الأساتذة القائمين على المدارس القرآنية والزوايا، مع المحافظة على قدسية المكان والقصد.

- الإحالات والمراجع :

[1]- بلحسن إبراهيم، العلاقات الثقافية بين المغربين الأوسط والأدنى من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري (رسالة ماجستير)،جامعة تلمسان، قسم التاريخ، 2004-2005م، ص:77 .

[2]- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، 1431ه- 2001م، بيروت- لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص:740.

[3]- الأزرق أحمد، الكتاتيب القرآنية في الجزائر، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2002، ص:27.

[4]- الطالب عبد الرحمن بن أحمد التجاني، الكتاتيب القرآنية بندرومة من 1900 إلى 1977، 1983، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص: 17.

[5]- الونشريسي أحمد بن يحي ، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، ج 2، 1998، المغرب، نشر الأوقاف والشؤون الدينية، ص: 156

[6]- صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية في الجزائر تاريخها ونشاطها، 2002، بيروت، ص:301.

[7]- بحيدي حسان و محمد عبد القادر، الزوايا و دورها في حفظ المخطوطات، علم المكتبات و الوثائق، بإشراف: أصحى محمد، 2000- 2001م، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة السانية وهران ، ص:04.

[8]- محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، الجزائر، دار الفكر- سوريا، دار الفكر العربي بوزريعة، ص27.

[9]- محمد باي بلعالم: أهداف نشأة الزوايا وواقعها في المنطقة، الملتقى الوطني الأول للزوايا بأدرار، أيام 1، 2، 3 ماي 2000م، أدرار، ص: 01.

[10]- محمد نسيب، المرجع السابق، ص: 31.

[11]- محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص: 02.

[12]- صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص: 302.

[13]- عبد المجيد قدي ، صفحات مشرقة من تاريخ مدينة أولف العريقة ، دراسة تاريخية ثقافية واجتماعية ، د ط ، د ت ، دد، ص: 204.

[14]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية لمنطقة توات، ج1، 2005، الجزائر، دار هومة، ص:319-320.

[15]- تأسست الرابعة في زاوية الرقاني للشيخ سيدي محمد الفقه الرقاني رحمه الله، لم يرد ذكرها في رحلة لأنها بنيت بعد تأليف الكتاب.

[16]- الرحلة العلية، المرجع السابق، مج1/ ص: 57.

[17]- المرجع السابق، الموضع نفسه.

[18]- ابن خلدون ، مرجع سابق، ص: 734.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[19] - ينظر: البلبالي محمد بن عبد الرحمان وعبد العزيز البلبالي، غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل- الغنية البلبالية، مخطوطة بخزانة كوسام، أدرار، ورقة رقم 02و 03 ،والفي عبد الرحمان، ،نظرة على أثار الأعلام بمنطقتي توات وتيدكلت، الملتقى الرابع حول إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث (1500-2000)، أدرار ،2010،ص51.

[20]- الطالب عبد الرحمن بن أحمد التجاني، مرجع سابق، ص: 38.

[21] - المرجع نفسه ، ص: 38.

[22] - قدي عبد المجيد، مرجع سابق، ص: 214.

[23] -نفس المرجع، ص: 214. بتصرف

[24] - والفي عبد الرحمان، مرجع سابق ، ص:51.

[25] - جعفري مبارك، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 ه ، ط 1، 2009، الجزائر، دار السبيل للنشر والتوزيع، ص: 146.

[26] - الوقفات:هي ما يقف عنده الشيخ في الدرس ليكمله في درس الغد، وقد يكلف أحد الطلبة يتذكر بمكان التوقف في متن أو فقه... إلخ لغاية إتمام الكتاب أو المتن.

[27]- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و 19 الميلاديين، أطروحة لنيل الدكتوراة، الزاوية الغربية طرابلس 1977/06/28، ص: 99.

[28] - قدي عبد المجيد، مرجع سابق، ص: 220.

[29] - جعفري مبارك، مرجع سابق، ص: 194

[30] - المرجع نفسه ، ص:150.

[31] هو عبد الله بن يوسف، ولد عام 708هـ، أخذ عن أبي حيان، كان شافعيا، أتقن العربية وفاق الأقران، من مصنفاته مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، توفى عام 871ه. للاستزادة يُنظر: (محمد بن الحسن بن عقيل موسى، المختار المصون من أعلام القرون، ج1، جدة، المملكة العربية السعودية، دار الأندلس الخضراء، ص: 315 ـ)

[32] حاج أحمد الصديق، مرجع سابق، ص: 77.

[33] - المرجع نفسه ، ص: 77.

[34] - بقادر عبد القادر، جهود علماء توات في الدرس اللغوي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (دراسة في الأنماط والأشكال)، مجلة الأثر، العدد 19، جانفي 2014م، ص: 92.

[35]- المرجع نفسه ، ص: 92.

[36]- المرجع نفسه ص: 92.

[37]- القصيدة مخطوطة في خزانة سيدي عبد الله البلبالي بكوسام.

[38] - المنظومة في خزانة الأستاذ ابن الوليد عبد القادر بباعبد الله أدرار.

[39]- بقادر عبد القادر، مرجع سابق بتصرف، ص: 93.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

دليلة شاري، بغداد بلية ، (2019)، **الطرق الميسرة في تدريس اللغة العربية في الكتاتيب القرآنية في توات** ، مجلة الباحث في العلوم الانسانية و الاجتماعية ، المجلد 11(04)/ 2019، الجزائر : جامعة قاصدي مرباح ورقلة،(ص.ص 241-250)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com